نظام الشورى في الإسلام

بين الكثرة والقلة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

كم في السيرة النبوية من أسرار تشريعية لو رجعنا إليها لأغنتنا عن الاستعانة بغيرها من التشريعات المنحرفة، في عصر ضلت فيه السياسة ضلالاً بعيداً، وطغت فيه التعصبات الحزبية حتى أعمت الأمم عن النظر في مصالحها العامة، وآثرت عليه النظر في مصالحها الحزبية، وحتى ثارت في كل أمة خصومات وخلافات خطيرة تفرق كلمتها، وتقضي على الأخضر واليابس فيها، لأن الحكومة تقوم فيها على أساس الحزبية، فكل حزب يعمل كل ما يوصله إلى الحكم، ويرى مصلحته في هذا فوق غيرها من المصالح

وقد أخذنا نظمنا الحديثة في الشورى عن تلك الأمم، وقلدناها في تلك السياسة الحزبية العمياء، فضللنا وجه الصواب كما ضلت، وأخذنا نتخبط في حكمنا مثلها تخبطاً مميتاً، حتى اضطربت أمور الحكم فينا، وحرمنا من الاستقرار الذي نتفرغ فيه لمصالحنا

ولو رجعنا إلى السيرة النبوية لوجدناها قد سنت نظام الشورى على وجه يسود فيه التسامح، ولا يغلو فيه التعصب للرأي إلى ذلك الحد المعيب، فسارت سياسة الحكم في هدوء، واستقر الأمر استقراراً ظهر فيه الحق بوضوح، فلم يعمه عن أعين الناس تعصب للرأي، ولم يصرف الأمة عن مصلحتها العامة مثل ذلك التقالي في الخلاف

مولاي مما سمعته منه؟ قالت ظمياء: فدنت مني ونظرت في عيني بعينين مذعورتين يخفق فيهما مثل شقائق البرق، ثم قالت: ما من شيء يفعله هذا الخبيث ابن هلال حيث كان إلا كان عند سيدي خبره. فقالت لها ظمياء: ويحي! أحقاً قلت ياصهباء؟ قالت: وَيْ، أو كنت كاذبة عليك وما أنا وأنت إلا من هذه الجواري الغريبات المستضعفات؟ ومالك تكذبيني وإن عندي من برهان ذلك مالا قبل لك بردّه. قالت ظمياء: بالله! قالت: بالله، فاذهبي إلى صوان سيدك في هذه الغرفة التي إلى جوارنا، وأخرجي من بين المطرف السابع والثامن من ثياب مولاك ماتجدين!

[قالت كلثم امرأة ابن أبي ربيعة]:

« فهبت ظمياء فدخلت إلى صوانك (تعني عمر) فأخرجت شيئاً رجعت به إلى صهباء. ثم إذا هي تدخل عليّ وتقص قصة ما كان، فأمرتها أن تأتيني بصهباء لأسمع ماتقول، فروت لي كل ما حدثتك به يا أبا الخطاب.

(قال عمر بن أبي ربيعة):

« فما تمالكت أن قلت لكلثم: ماتقولين؟ وأي شيء هذا الذي كان بين مطرف السابع والثامن؟ فقالت كلثم رويدك ياعمر، إما أن تدعني أتم وإلا والله لاسمعت مني شيئاً حتى يقطع الموت بيني وبينك. قلت: ويحك، فأتمي:

قالت كلثم. « ثم إني سألت صهباء عن سيدها ومولاها، فقالت إنه رجل صالح يسيح في الأرض، وإنه قد جاء فحج حجته وهو على سفره بعد قليل يضرب في البادية حيث يشاء الله. قلت لها: أو يعلم مولاك من أمر ماتحدثيني عنه أكثر مما قلت؟ قالت: لاأدري يامولاتي، فإنه ربما دعاني ويجعل يحدثني ويحدثني حتى أقول لن يسكت، وما هو إلا كخاطفة البرق حتى يقطع فلا يتكلم. فربما عدت فسألته فلا والله مايزيد على أن ينظر إلي ويبتسم. قلت لها. أو تستطيعين ياصهباء أن تأتيني بمولاك، ولك عندي مائة دينار؟ كلا لا نلت من مال مولاتي شيئاً، ولكني سأديره حتى يأتيك لما أرى في وجهك من الخير والسعد

(البقية في العدد القادم)

محمود محمد شاكر

وقد تم ذلك فى غزوة أحد من غزوات النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت فى السنة الثالثة من الهجرة ، فقد وقع فيها خلاف بين المسلمين انقسموا فيه إلى فريقين : أحدهما يمثل الكثرة ، وثانيهما يمثل القلة ، وحل الخلاف بينهما على وجه لا أثر فيه للتعصب ، ولا يمكن أن يكون هناك أتم منه فى وجوه الشورى

وكان ذلك الخلاف أن رجالا من المسلمين أسفوا على ماقاتهم من مشهد بدر ، لما كانوا يسمعونه من إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بفضل من شهدها ، وعظيم ثوابه ، فكانوا يودون غزوة ينالون فيها مثل ماناله أهل بدر وإن استشهدوا ، فلما سار المشركون فى غزوة أحد إلى المدينة رأوا أن يخرجوا منها لقتالهم ، وعرضوا رأيهم هذا على النبى صلى الله عليه وسلم

فنام صلى الله عليه وسلم ليلته فرأى رؤيا ، فلما أصبح قال : والله إنى قد رأيت خيرا : رأيت بقرا تذبح ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلما ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة . فأما البقر فناس من أصحابى يقتلون ، وأما الثلم الذى رأيت فى سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل ، وإنى رأيت أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم يتزلون حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن دخلوا علينا قاتلناهم ورُمُوا من فوق البيوت

وكانوا قد شيكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ، وجعلوا فيها الآطام والحصون ، فكانت حصنا قويا لأهلها ، وكان الرأى أن يقيموا فيها ، كما فعلوا بعد ذلك فى غزوة الأحزاب ، فلم يقو المشركون على اقتحامها على المسلمين ، وكانت جموعهم فيها أكثر من جموعهم فى غزوة أحد

فقال أولئك القوم الذين أسفوا على ماقاتهم من مشهد بدر ، وغالبهم أحداث لم يمكنهم أن يشهد تلك الغزوة الكبرى ، فأحبوا لقاء العدو وطلبوا الشهادة فأكرمهم الله تعالى بها : يارسول الله ، إنا كنا نتمنى هذا اليوم ، أخرج بنا إلى أعدائنا لايرون أنا جبنا عنهم وضعفنا

وقد رأى عبد الله بن أبَيّ رئيس المنافقين تلك الرغبة الصادقة فى القتال من أولئك الشبان ، فساءه ذلك منهم ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : أقم بالمدينة لاتخرج اليهم ، فوالله ماخرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يارسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا

ومثل هذا لايحمد من عبد الله بن أبى وإن وافق فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الحق ليس فى كلمة تقال ، ولا فى فعل يظهر بين الناس ، بل لابد مع هذا من صدق النية ، وحسن المقصد ، وقد عول الإسلام على النية فى الأقوال والأفعال كثر من التعويل على الأقوال والأفعال فى ذاتها ، حتى أثر فيه ذلك القول المشهور : نية المرء خير من عمله

فلما سمع أولئك الشبان ذلك القول من عبد الله بن أبى لم يأبهوا له ، واجتهدوا فى حمل النبى صلى الله عليه وسلم على رأيهم ، وقال حمزة وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك وطائفة من الأنصار : إنا نخشى يارسول الله أن يظن أعداؤنا أنا كرهنا الخروج جبنا عن لقائهم ، فيكون هذا جراءة منهم علينا . وزاد حمزة : والذى أنزل عليك الكتاب ، لا أطعم اليوم طعاما حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة . وقال النعمان : يارسول الله ، لاتحرمنا الجنة ، فوالذى نفسى بيده لأدخلنها . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لِمَهْ . فقال : لأنى أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : صدقت . وقد استشهد رضى الله عنه فى هذه الوقعة

وقد نظر النبى صلى الله عليه وسلم فوجد أن الذين يرون من أصحابه رأى أولئك الشبان أكثر من الذين يرون رأيه ، فنزل طائعا على رأى ذلك الفريق الذى كان أكثر عدداً ، وترك رأيه إلى رأيهم ، وهو الرئيس الأعلى ، والرسول المبعوث إلى الناس كافة ، لأنه رأى أن من يوافقه فى الرأى أقل عددا من الفريق الأول ، فلم ينظر إلى شخصه فى ذلك الخلاف ، وإنما نظر إلى التشريع الذى يجب أن يُسَنّ فى تلك الحادثة من الشورى التى شرعها فى الإسلام ، ليستقيم المسلمون أمرهم فيها ، ولايقعوا فى ذلك التعصب الأعمى للرأى ، فتنقلب نعمة الشورى نقمة ، ويضل الناس بها سبيل الحكم الصالح ، وبهذا علم المسلمون أنه يجب عند اختلاف الرأى فى الشورى أن ينزل الفريق الأقل عددا على رأى الفريق الأكثر عددا ، وإن كان يرى أن رأيه هو الأرجح ، لأن مخالفة الكثرة أشد ضررا ، وكما يجب تقديم النافع على الضار ، يجب تقديم الأخف ضررا على الأشد ضررا

ولما نزل النبي صلى الله على رأى تلك الكثرة صلى بالناس الجمعة ، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد فى التأهب للقتال ، وأخبرهم بأن لهم النصر ماصبروا ، ففرح الناس لذلك فرحا شديدا ، ثم صلى بهم العصر وقد حشدوا ، وحضر أهل العوالى وهى القرى التى حول المدينة من جهة نجد ، فدخل حجرته ولبس عُدَّته ، وتقلد السيف ، وألقى الترْسَ وراء ظهره

وقد اصطف الناس مابين حجرته إلى منبره ينتظرون خروجه ، فقال لهم سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَيْر : استكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج ، وقلتم له ماقلتم والوحى ينزل عليه من السماء ، فردوا اليه الأمر

ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم وقد لبس لأمَتَه ، وتقلد سيفه ، فندموا جميعا على ماصنعوا ، وقالوا : ماكان لنا أن نخالفك ، فاصنع ماشئت ، وفى رواية — مابدا لك — وفى أخرى — فإن شئت فاقعد

وإنه لإيثار جميل من تلك الكثرة ، ولم يحملهم عليه إلا بدء النبي صلى الله عليه وسلم قبلهم بإيثار رأيهم على رأيه ، حفظا للوحدة ، وحذرا من الفرقة ، وإذا كانت فضيلة الإيثار جميلة فيما يملك الإنسان من مال ، فكم يكون جمالها فيما يعتز به من رأى ، والرأى عند الإنسان أشرف من المال ، وكم ضحى بالمال فى سبيل الرأى ، ولكن فضيلة الإيثار كانت ظاهرة ذلك العهد النبيل ، فلا غرو أن تبادل تلك الكثرة النبي صلى الله عليه وسلم إيثارا بإيثار ، وأن تترك رأيها إلى رأيه طائعة مختارة ، بعد أن جاهدت فى تأييده ماجاهدت ، وناضلت فى الدفاع عنه ماناضلت

ولكن النبي صلى عليه وسلم رأى أن رأيه كان هو الارجح قبل أن يؤثر رأيهم على رأيه ، وقبل أن يلبس لأمته ويتقلد سيفه ، فأما بعد ذلك فقد اتفق رأيهم جميعا على الخروج ، فاذا رجعوا عنه لم ير الأعداء إلا أنهم جبنوا عن قتالهم ، فيحملهم ذلك على الطمع فيهم ، ويعطيهم قوة معنوية يكون لها أثرها فى قتالهم

فقال لأولئك الذين تركوا رأيهم إلى رأيه فى القعود بالمدينة : ماينبغى لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه . وفى رواية — لاينبغى لنبي إذا أخذ لأمة الحرب ، وأذَّنَ فى الناس بالخروج إلى العدو ، أن يرجع حتى يقاتل . فياله من عهد كريم بلغ فيه حكم الشورى غاية الكمال ، ولم تتفرق فيه الأمة إلى أحزاب متخاصمة على الحكم ، بل ظهرت فيه كتلة واحدة ، إذا اتفق أفرادها فرائدهم المصلحة العامة ، لامصلحة حزب من الاحزاب ، وإذا اختلف أفرادها فرائدهم تلك المصلحة أيضا ، لأنهم لاينقسمون إلى أحزاب يناقض بعضها بعضا ، ويحملهم التعصب لها على نسيان مصلحة الأمة فى نبذ التفرق ، وإيثار الوفاق على الخلاف

وإذا نحن فى عصرنا قوم بنظام الشورى عندهم ، فهذا نظام الشورى عندنا قد بلغ غاية الكمال ، وخلا من العيوب التى يرمى بها حكم الشورى فى عصرنا ، وتجعل بعض الناس يفضل عليه الحكم الاستبدادى ، وأين تشريع البشر من تشريع الله تعالى ؟ فلا تشريع أكمل من تشريعه ، ولا حكم أعدل من حكمه ، فتبارك الله أعدل الحاكمين ، وأحسن الخالقين

عبد المتعال الصعيدى

الإنسانية تنشد عالما جديدا

تصوره لك هذه الكتب فى جرأة وحرية وقوة وأسلوب جديد رائع اصطنعه المؤلف فى الأدب العربى الحديث

	ص
١ — البعث أو مذهب السلام	٢٠
٢ — هل أفلست حضارة أوربا ط ٢	١٠
٣ — لا أؤمن بالدين	١٠
٤ — مع عظماء الإنسان و مجانين الحب	٦
٥ — أياصوفيا أو فلسفة الحياة	١٠
٦ — محاكمة الزمن أو طه حسين	١٥

بقلم الأستاذ « محمد العشماوى »

الناشر مطبعة الفكر الحديث بالمالية ومكتبة النهضة المصرية بشارع عدلى بالقاهرة